

المرأة المسلمة

في القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد)

بقلم الأنسة نعيمة المغربي

تطلع علينا مكتبة الأديب السيد جسام الدين القدسي بالقاهرة من حين إلى آخر - بطائفة صالحة من الكتب العربية القديمة ، فينبش كنوزها الدفينة ، ويعرض جواهرها على أنظار عشاق الأدب ، وهواة لغة العرب ، وهي خدمة موقفة يضطلع بها الأديب المذكور ، ويقصد من ورائها خدمة ثقافتنا العربية القديمة وأبنائها الذين يقدرون حسن اختياره وحيد مجهوده . من ذلك أنه بإشراف طبع كتاب (الضوء اللامع) في تراجم رجال القرن التاسع تأليف المحدث الكبير والمؤرخ النقاد شمس الدين السخاوي ؛ وهذا الأثر من أعظم آثار السخاوي وأكثرها شهرة ، يقع في عدة مجلدات ضخمة ، ظهر منها إلى اليوم اثنا عشر جزءا . وقد خص المؤلف الجزء الثاني عشر من كتابه بتراجم نساء القرن التاسع . وكثيرا ما انتصر على اسم المترجمة وتاريخ ولادتها ووفاتها والاجازة التي تلقها من شيوخها إن كان ثمة اجازة . ومع هذا فالباحث يستطيع أن يستخرج من (الضوء) فوائد جمة ذات قيمة تزداد وضوحا كلما أوغل المطالع في مطالعته وازداد للمؤلف محبة في تتبع أخبار من ترجم من نساء عصره ، فهو يقع من وقت إلى آخر على حوادث طريفة وفوائد ممتعة من أحوال نساء ذلك العهد

والكتاب يشتمل على ترجمة ألف امرأة ونيف ؛ وهو عدد كبير لا يسعه كتاب واحد لو أن المؤلف توخى الاسهاب والاطالة ، ولكنه لجأ إلى الإيجاز وإهمال التفاصيل كما مر . ولا أعرف السبب الذي حدا بالمؤلف رحمه الله إلى ذكر بعض نساء عصره ما دام أنه لم يظفر من أخبار حياتهن بما يستحق الذكر والتدوين . وكنت أرجح أحيانا إلى كتاب (شذرات الذهب) بنية زيادة الاستيثاق من ترجمة بعض من ترجم المؤلف لمن ، فأجد صاحب (الشذرات) أيضا قد منحنا منحى (صاحب الضوء) في الاختصار والاقصار على الاسم والوفاة . ولعل هذا

شاعرنا إلا بالمال ، فانطلق بتمسه في موطنه ؛ ويظهر أنه جاء بما فيه البلغة ، ولكن النية حالت دون الأمنية ، ولنا على هذا كلام يضيق الوقت عن بسطه

والمال في نظر أبي الطيب إنما هو وسيلة إلى غيره ، وقد اتهمه بعض حساده بالشح وفي طليعتهم أبو بكر الخوارزمي ذلك الشتامة الذي لم يسلم من أوصار لسانه إلا القليل وحالة شاعرنا تنطق ببراءته من هذه التهمة . أما أقواله فيرهان آخر :

وما حاجتي في عسجد أستفيده ولكنها في مفخر استجده

غثائه عيشي أن تفت كرامتي وليس بث أن تفت المآكل

ومن يتفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر بقي علينا أن نسأل من أين تسربت هذه الفكرة إلى رأس أبي الطيب ؟ والجواب أن لنفسه المجدولة على التعالى أقوى نصيب في تكوين هذه الفكرة وتغذيها وتنميتها ، فقد خلق شاعرنا شجاع القلب ، أبي النفس ، حي الأنف ، خصيب العقل ، ملتهب الفطنة ، فياض الماطفة ، صبغا بمالي الأمور زاهدا في سفافها

والعامل الآخر في هذه الفكرة الأوضاع السياسية في البلاد الاسلامية يومئذ ، فقد كانت هذه البلاد مسرحا للفتن والفساس ، ونهباً مقسماً بين رجال الثورات وأرباب الدعوات وأهل الختل والغدر ، وقد ساءم في ذلك حتى العبيد ، وحسبك بكافور على ذلك مثالا فقد صار :

يدبر الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب
فأبالك يفتي يعرني توفرت فيه كل أسباب السيادة ومزايها
الرياسة ؟

ولكن ما الحيلة وقد كبا به جده دون الناية ، وحالت النية دون الأمنية ؟ ولا ضير فقد سى وليس عليه إدراك النجاح

على أن المجد الذي خانته في ميدان السياسة ، حلق به في سماء المجد الأدبي فأطلعه فيها شمسا تفيض بالنور على مر الدهور ؛ وإن أخطائه إمارته السياسية فقد اعتزت به إمارته الأدبية ، وتلك فانية لأنها تدور حول الحطام ، أما هذه فياقية على مر الأيام
طه الرازي

نظمت الشعر وكان بينها وبين المؤلف وسواه من العلماء مساجلة ومناظرة ، فهي تشبه من هذه الجهة شاعرة الشام في القرن العاشر للجزيرة السيدة عائشة الباعونية المدفونة في صالحة دمشق . ومن هنا يتبين أن إقبال النساء على قرض الشعر في ذلك العصر أعنى القرن التاسع كان قليلاً ، وكانت جل رغبتهم يومئذ في تلقى علوم الحديث وروايته . وللبليئة - ولا ريب - أثر في خلق هذا الميل فيهم وطبعهم بهذا الطابع

والشاعرة الوحيدة التي ذكرها (السخاوي) وترجمها ترجمة مفصلة هي (فاطمة) المشهورة بلقب (سنيطة) ابنة القاضي كمال الدين محمود بن شيرين الحنفي . قال المؤلف ما نصه :

(ولدت كما كتبت لي بخطها في سادس المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة بالقاهرة ونشأت فتعلمت الكتابة وتزوجت الناصري محمد بن الطالبنا ثم مات عنها فتزوجها العلاء علي بن محمد ابن بيبرس حفيد ابن أخت الظاهر رقوق فاستولدها بيبرس ، ولاحظ لها في ذلك مع براعتها في النظم وحسن فهمها وقوة جنانها حتى كانت فريدة فيما اشتملت عليه . وقد حجت وجاورت وسكنت بجوارنا . ومما كتبت به الي بعد مجيء الخبر بموت أخرى من نظمها :

فأوصاف معانهم عن الحسن جلت
قنا واسما مني حديث أحبتي
وأبصرت الأشياء من غير نبأ
أناس أطاعوا الله نارت قلبهم
ونارت قلوب منهم بصيرة
وقد كوشفوا عن كل ما أضمر الفتي
ومنها :

أثابكم ربي وعظم أجركم
على فقد أحباب وأحسن جيرة
كرام سمواعلماً وحلماً وسؤددا
وكنتم بهم في غبطة ومسرة
قطعتم لديذ العيش وصلاً بقرهم
فوا أسفا عند الفراق وحسرة
ومما كتبه اليها المؤلف مجاوباً : (يا بديعة الماني ، ورفيعة الباني ، ومن فاقت الكثير من الرجال فضلاً عن النساء ، وراقت أحياناً فخاكت الخنساء ؛ حفظ الله تعالى دينك وديناك الخ)
ولها أشعار كثيرة وقصائد مطولة تدل على مبلغ اجتهادها في تحصيل العلم والأدب . ولها أيضاً مطالعات شعرية مع بعض الأدباء رجحوها بها عليهم

ومما يستحسن ذكره وصرت الإشارة إليه أن المؤلف ذكر ترجمة موجزة لبعض قريباته : منهن جدته وعمته وابنة

المؤلفين في ذلك أن نساء عصرهم كن ذوات حياة مختصرة فتبع ذلك اختصار في الترجمة ، وقد يكون السبب في ترجمة هؤلاء في (الضوء اللامع) أنهم يمتحن إلى مؤلفه بقراءة أو تلمذة أو جوار أو صداقة والد ؛ كما لحنا ذلك في تراجم كثيرات منهن . وما يدرينا أن بعضهن كن يكلفنه ترجمتهن حباً لتخليد ذكرهن ولو بالاختصار على اسمهن ، وهذا كما يفعل بعض نساء زماننا ؛ (بل وبعض رجاله) إذ يرغبن الى رجال الصحافة أن يذكرهن في صحفهن مباهاة بين أربابهن

وعلى كل فان هذا الجزء روض نسائي حافل بشتى أنواع الأزهار والرياحين ؛ تقرأه بلاذة وشغف ، إذ تتوفر لديك فيه النماذج المتنوعة من المرأة المسلمة في ذلك العهد الذي ساد أو بدأ يسود فيه الانحطاط . ولعل أبرز طابع في (الضوء) هي الصراحة التي امتاز بها المؤلف في معظم ما كتب وخلد من أثر ، وفي هذه الصراحة ما يشوق القارى ويغريه بالمطالعة ومراقبة المؤلف إلى النهاية

أنى المؤلف على طائفة كبيرة من نساء عصره وعرض علينا من أحوالهن وجوهاً مختلفة وأشكالاً متمدة ونفسيات متباينة وعقليات متنايرة . فهن المحدثات العالمة ، والحافظات البارعة ؛ ومنهن النقية الورعة والمحتسبة الصابرة ؛ ومنهن الحبشية السوداء والجركية الحسنة ، ومنهن سليمة اللوك والسلاطين ؛ ومن أثر فيها كيد الحاسدين وسحر الساحرين . يذكرهن لنا كما عرفهن ووصلته أخبارهن . وكثيرات منهن طاصرنا المؤلف وكن من للمجبات به المنتقدات بسمة فضله وغزارة علمه

في القرن التاسع للجزيرة كانت المرأة المسلمة في مصر والشام برغم ما يعزى إليها من تأخر تعلق من الأئمة ويتلقون عنها . يميزها العلماء ويميزهن ؛ يناظرها الأدباء وتناظرهن ؛ تحفظ دواوين الشعر وتروى عن الشعراء ؛ ذات فكر تأتب وقريحة نيرة ورغبة ملحة في التحصيل ، لا يسترها سأم ولا ملل في طلب العلم والأخذ عن أساطينه ، وحفظ كتب الفقه والأدب ، ودواوين الشعر والمذاكرة فيها

ومما يلحظه المطالع أن معظم نجوم (الضوء) لحن في سماء مصر وقتيان ظلال تخيلها وارتوين من ماء نيلها ؛ واغترفن من بحار حلوهها . وقد أحييت أن أحصى العواصر فلم أظفر بسوى واحدة

العواميد بقلعة الجبل بعد أن تحولت منها (خوند ازد) زوجة سيدها ، ولم تلبث الا يسيرا حتى تملكت وولمت الفراش ، وكثرت القالة بسببه ، واتهم جماعة بسحرها ، وظن ابنها أن ذلك من بعض الخونديات زوجات أبيه حسداً وبغضاً ، لأنها مع كونها بارعة الجمال سارت سيرة جميلة من الحشمة والرياسة والكرم مع الاتضاع الزائد والخير والدين . ولها معروف ومآثر حسنة ، جذدت بمكة رباط الخوزي ووقفت عليه وفقاً وأصلحت ما كان تهدم منه . ماتت في ذي الحجة سنة اثنتين وثمانمائة ودفنت بالمدرسة البروقية رحمها الله . ذكرها شيخنا في (إنبائه) باختصار وقال : « كانت كثيرة المروف والبر » . زاد المعنى : (واتهم جارية بسحرها فقضيت حتى آهمت نصرانياً كاتباً فموجب فلم يقرّ نجس حتى مات هو والجارية)

وما زال هذا الضعف الخلقى في الخوف من السحر والاعتقاد به سائداً إلى اليوم في الأقطار الفرية على اختلاف بينها في درجة ذلك ، وحوادث ملوك الجان ، ما زالت ترن في الآذان

والكتاب مفيد لا تغل قراءته ولا نسام حجبته . فهو كالبلستان فيه من كل فاكهة زوجان ، وما أحوجننا إلى مطالعة أمثال هذه الكتب التي ترينا صورة واضحة جلية عن حياة نساء تلك العصور وتظلمنا على درجة ثقافتهم ، وطريقة تعلمهم . والكتب في تراجم النساء مما تركه لنا السلف قليلة جداً وهذا منها ، ولا تنس الجزء الثامن من طبقات ابن سعد الخاص بالصحابيات رضوان الله عليهن

نعمة المفدى

(دمشقي)

سراج الملوك

كتاب قيم للإمام أبي بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى . فيه علم وأدب ، واجتماع وأخلاق ، وتربية وحكم إسلامية ، وعظات دينية ، وذخيرة الأديب ، وزهة الجليس ، لا يستغنى عنه عالم ولا واعظ . يقع في ثلثمائة وتسعين صفحة من القطع الكبير ، ورق أبيض ناعم ، وثمته عشرون قرشاً ؛ ويطلب من المكتبة المحمودية بالأزهر ، صندوق بوسنة رقم ٥٠٥ عصر تليفون ٥٣٠٦٧

شقيقه وأخته بالرضاع ووالدة امرأته التي أصيبت بالفالج وماتت عقب ذلك لدى سماعها خيراً مكذوباً عن وفاة المؤلف وابنتها زوجته وهما في الحج . وكذلك جاريته (أبرك) الحبشية (التي كانت ضابطة لبيتهم قائمة صافية)

ومن يتأمل الكتاب وتراجم نساؤه يلمح وقوع أمور في ذلك العصر لا يزال يقع مثلها في عصرنا الحاضر مع تقادم العهد وتطاول الزمن : فمن هذا القبيل :

(سمادات) ابنة الشيخ نور الدين البوشى . تزوجها البقاعى بدموت والدها وألها منه من الذل ما لم يكن لها في حساب ، بل نال طلبة أبيها من أجل مساعدتها ماشاء الله ، وكذا مس أخاها منه كل سوء فلم يحتمل وسأله الطلاق بعد ولادتها منه وأشهدت عليها أنها متى رامت نظر الولد أو أخذه كانت ملتزمة بخمسة مائة دينار ، وسمحت بفارقة ولدها ومهجتها مع مزيد حبها له . وكذلك (فاطمة) ابنة البدر الحنبلى تزوجها سبط الفز الحنبلى عز الدين محمد بن الشهاب الجوجرى فلم يحصل الثمام فقارقتها بعد بذل له وإبراء

وما كان المؤلف ليحجم عن انتقاد ما يجب انتقاده من أحوال مترجمات كتابه :

(إلف) ابنة القاضي علم الدين البلقينى ، تزوجها عبد القادر ابن الأحمدي ، ثم عبد القادر بن الرسام الحموى ، ثم أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، ثم فارقتها واتصلت بابن عمها البدر أبى السعادات بعد موت زوجته وأقبلت حينئذ على الخير وقررت في مدرسة جدها عند قبره قراء في كل يوم ، وقامت بأمر المدرسة وبتفقد الفقراء والأرامل ، وتزايد ذلك بعد موت ولدها حتى صارت فريدة في أقرانها وأمثالها ، ورتبت قراء يقرأون عندها الحديث والتفسير ، الى أن يقول : (ولا أحد كثيراً من تصرفاتها خصوصاً فيما يتعلق بالأيتام)

وكنا نرغب لو أن المؤلف كان أكثر ايضاحاً فيذكر لنا ما لم يعجبه من تصرفاتها وهى التقية الصالحة التي زخرت حياتها بعمل البر والاحسان

وقد قص علينا حادثة لعب فيها الحجر دوره ، وذهب ضحيته نضان بريثان لا نعلم مبلغ التهمة النسوبة اليهما من الصحة (شيرين) الرومية ، هى أم الملك الناصر فرج بن برقوق ، ولما تسلطن ابنها صارت (خوند الكبرى) وسكنت قاعة